مثال آخر : بعض الناس يقولون : هناك اختلاف فى القراءات .. مثل قوله تعالى :

﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤ ﴾

(سورة الفاتحة)

ويقول : هناك من يقرؤها « ملك يوم الدين » .. لكن هناك ما يُسمى « تربيب الفائدة » لأن كلمة « مالك » وكلمة « مَلِك » معناهما واحد ، والقرآن كيف يكون من عند غير الله ؟ « أفلا يتدبرون القرآن ولو كان » ـ أى القرآن ـ « من عند غير الله » أغير الله كان يأتى بقرآن ؟! لا . إنما القرآن لا يأتى إلا من الله سبحانه وتعالى ، « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » .

إن قوله سبحانه : « أفلا يتدبرون القرآن » تكريم للإنسان ، فكأن الإنسان قد خلقه الله ليستقبل الأشياء بفكر لو استعمله استعمالاً حقيقياً لانتهى إلى مطلوبات الحق ، وهذه شهادة للإنسان ، فكأن الإنسان مزود بآلة فكرية .. هذه الآلة الفكرية لو استعملها لوصل إلى حقائق الأشياء ، والحق لا يريد منا إلا أن نعمل هذه الآلة : « أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيرا » فالقرآن كلام الله ، وكلام الله صفته ، وصفة الكامل كاملة ، والاختلاف يناقض الكمال . فمعنى الاختلاف أنك تجد آية تختلف مع آية أخرى ، فكأن الذى قال هذه نسى أنه قالها !! وبعد ذلك جاء بأمر يناقضها ، ولو كان عنده كمال لعرف ما قال أولاً كى لا يخالفه ثانياً ..

إذن فلا تضارب ولا اختلاف فى القرآن ؛ لأنه من عند الله .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ

لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾

الحق سبحانه وتعالى يربى الأمة الإيمانية على أسلوب يضمن ويؤمّن لهم سرّية حركتهم وخاصة أنهم قوم مقبلون على صراع عنيف ولهم خصوم أشداء ، فيربيهم على أن يعالجوا أمورهم بالحكمة لمواجهة الجواسيس . فيقول : « وإذا جاءهم أمر » . أى إذا جاءهم خبر أمر من الأمور يتعلق بالقوم المؤمنين أو بخصومهم ، وعلى سبيل المثال : يسمعون أن النبى عليه الصلاة والسلام سيخرج فى سرية إلى المنطقة الفلانية ، وقبيلة فلان تنتظره كى تنضم إليه ، وعندما يسمع الضعاف المنافقون هذا الخبر يذيعونه . فيحتاط الخصوم بمحاصرة القبيلة التى وعدت الرسول أن تقاتل معه كى لا تخرج ، أو يقولون مثلاً : إن النبى سيخرج ليفعل كذا فيذيعوا أيضاً هذا الخبر ! فأوضح لهم الحق : لا تفعلوا ذلك فى أى خبر يتعلق بكم كجماعة ارتبطت بمنهج وتريد لهذا المنهج أن يسيطر ؛ لأن هذا المنهج له خصوم .

إياكم أن تسمعوا أمراً من الأمور فتذيعوه قبل أن تعرضوه على القائد وعلى من رأى القائد أنهم أهل المشورة فيه ، فقوله : « وإذا جاءهم أمر من الأمن » يقصد به أن المسألة تكون فى صالحهم « أو الخوف » أى من عدوهم « أذاعوا به » .

كلمة « أذاعه » غير كلمة « أذاع به » ، فـ « أذاعه » يعنى « قاله » ، أما « أذاع به » فهى دليل على أنه يقول الخبر لكل من يقابله ، وكأن الخبر بذاته هو الذى يذيع نفسه ، فهناك أمر تحكيه وتنتهى المسألة ، أما « أذاع به » فكأن الإذاعة مصاحبة للخبر وملازمة له تنشره وتخرجه من طىّ محدود إلى طى غير محدود . . أو من آذان تحترم خصوصية الخبر إلى آذان تتعقب الخبر ، ثم يقول : « ولو ردوه إلى الرسول » فالرسول أو من يحددهم الرسول صلى الله عليه وسلم هم الذين لهم حق الفصل فيما يقال وما لا يقال : « لعلمه الذين يستنبطونه منهم » والاستنباط مأخوذ من « النَّبْط » وهو ظهور الشيء بعد خفائه ، واستنبط أى استخرج الماء مجتهدا فى ذلك والنَّبَط هو أول مياه تخرج عند حفر البئر فنقلت الكلمة من المحسات فى الماء إلى المعنويات فى

الأخبار . وصرنا نستخدم الكلمة فى المعانى ، وكذلك فى العلوم . مثلما تعطى الطالب مثلاً تمريناً هندسياً ، وتعطيه معطياته ، ثم يأخذ الطالب المعطيات ويقول بما أن كذا = كذا . . ينشأ منه كذا ، فهو يستنبط من موجودٍ معدوماً .

وهنا يوضح الحق لهم : إذا سمعتم أمراً يتعلق بالأمن أو أمراً يتعلق بالخوف ، فإياكم أن تذيعوه قبل أن تعرضوه على رسول الله صلى الله عليه وسلم أو تعرضوه على أولياء الأمر الذين رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعطيهم بعض السلطة فيه ؛ لأنهم هم الذين يستنبطون . . هذا يقال أو لا يقال .

ويقول الحق : « ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً » كأنهم أذاعوا بعض أحداث حدثت ، لكنهم نجوا منها بفضل من الله سبحانه وتعالى وببعض إلهاماته فكان مما أذاعوا به ما حدث عندما عقد رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ العزم على أن يذهب إلى مكة فاتحاً . . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد غزوة وَرَّى بغيرها . . أى أنه لا يقول الوجهة الحقيقية كى يأخذ الخصوم على غرة ، وعندما يأخذ الخصوم على غرة يكونون بغير إعداد ، فيكون ذلك داعياً على فقدانهم قدرة المقاومة .

وانظروا إلى الرحمة فيما حدث فى غزوة الفتح ، فقد أمر رسول الله المسلمين بالتجهيز لغزو مكة حتى إذا ما أبصر أهل مكة أن رسول الله جاء لهم بجنود لا قبل لهم بها ؛ يستكينون ويستسلمون فلا يحاربون وذلك رحمة بهم . وكان « حاطب بن أبى بلتعة » قد سمع بهذه الحكاية فكتب كتاباً لقريش بمكة ، وأخذته امرأة وركبت بعيرها وسارت . وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بعلى ومن معه وقال لهم : إن هناك امرأة فى روضة خاخ معها كتاب من حاطب بن أبى بلتعة إلى قريش يخبرهم بقدومنا إلى مكة ، فذهبوا إلى الظعينة فأنكرت ، فهددها سيدنا علىٌّ وأخرج من عقاصها ـ أى من ضفائر شعرها ـ الكِتَاب ، فإذا هو كتاب من حاطب بن أبى بلتعة إلى قريش ، فاستحضر رسول الله صلى الله عليه وسلم حاطباً وقال له : أهذا كتابك ؟. قال : نعم يا رسول الله ، فقال : وما دعاك إلى هذا ؟ قال : والله يا رسول الله لقد علمت أن الله ناصرك ، وأن كتابى لن يقدم ولن يؤخر . وأنا رجل

ملصق فى قريش ولم أكن من أنفسهم ليس لى بها عصبية ولى بين أظهرهم ولد وأهل فأحببت أن أتقدم إلى قريش بيد تكون لى عندهم يحمون بها قرابتى وما فعلت ذلك كفرا ولا ارتدادا عن دينى ولا رضا بالكفر بعد الإسلام فقال له النبى : قد صدقت .

إذن فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يبنى القضايا الإيمانية وخاصة ما يتعلق بأمر المؤمنين مع أعدائهم على الصدق ، ولا يستقيم الأمر أن يفشى ويذيع كل واحد الكلام الذى يسمعه ، بل يجب أن يردوا هذا الكلام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى أولى الأمر لأنهم هم الذين يستنبطون ما يناسب ظرفهم من الأشياء ، ربما أذنوا لكم فى قولها ، أو أذنوا بغيرها إذا كان أمر الحرب والخداع فيها يستدعى ذلك . وهذا يدل على أن الحق سبحانه وتعالى وإن كان قد ضمن النصر والغلبة لهم وأوضح : أنا الوكيل وأنا الذى أنصر ولا تهابوهم ، إلا أنه سبحانه يريد أن يأخذ المؤمنون بالأسباب . . وبكفايتهم به على أنه هو الناصر . .

« ولولا فضل الله عليكم ورحمته لا تبعتم الشيطان إلا قليلاً » وهذا يدل على أن هذه المسألة قد حدثت منهم ولكن فضل الله هو الذى سندهم وحفظهم فلم يجعل لهذه المسألة مغبة أو عاقبة فيها يسوؤهم . « ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً » ونعرف أنه كلما جاء فعل من الأفعال وجاء بعده استثناء . فنحن ننظر:هل هذا الاستثناء من الفاعل أو من الفعل ؟ . . وهنا نجد قوله الحق : « لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً » فهل كان اتباع الشيطان قليلاً أى اتبع الشيطان قلة وكثيرون لم يتبعوا الشيطان . فهل نظرت إلى القلة فى الحدث أو فى المحدِث للحدث ؟ . فإن نظرت إلى القلة فى الحدث فيكون : لاتبعتم الشيطان إلا اتباعاً قليلاً تهتدون فيه بأمر الفطرة ، وإن أردت القلة فى المحدث : « لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً » أى إلاّ نفرا قليلا منكم سلمت فطرتهم فلا يتبعون الشيطان .

فقد ثبت أن قوماً قبل أن يرسل ويبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم جلسوا ليفكروا فيها عليه أمر الجاهلية من عبادة الأوثان والأصنام ، فلم يرقهم ذلك ، ولم يعجبهم ، فمنهم من صَدّ عن ذلك نهائياً ، ومنهم من ذهب ليلتمس هذا العلم من مصادرة فى البلاد الأخرى ، فهذا « زيد بن عمرو بن نفيل » ، وهذا « ورقة بن

نوفل » الذى لم يصدق كل ما عرض عليه ، و« أمية بن أبى الصلت » ، و« قُسّ بن ساعدة » ، كل هؤلاء بفطرتهم اهتدوا إلى أن هذه الأشياء التى كانت عليها الجاهلية لا تصح ولا يستقيم أن يكون عليها العرب فهؤلاء كانوا قلة وكانوا يسمون بالحنفاء والكثير منهم كان يعبد الأصنام ثم أكرمهم الله ببعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

إذن فقول الحق : « ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً » أى لأن الحق سبحانه وتعالى بفضله ورحمته لن يدع مجالاً للشيطان فى بعض الأشياء . . بل يفضح أمر الشيطان مع المنافقين . فإذا ما فضح أمر الشيطان مع المنافقين أخذكم إلى جانب الحق بعيداً عن الشيطان ، فتكون هذه العملية من فضل الله ورحمته .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه مخاطباً سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم :

﴿ فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا ﴿٨٤﴾ ﴾

وحين ترى جملة فيها الفاء فاعلم أنها مسببة عن شئ قبلها ، وإذا سمعت مثلاً قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة عبس)

ومعنى ذلك أن القبر جاء بعد الموت ، فإذا وجدت « الفاء » فاعرف أن ما قبلها سبب فيما بعدها ، ويسمونها « فاء السببية » .

فما الذى كان قبل هذه الآية لتترتب عليه السببية فى قول الله سبحانه لسيدنا رسول الله : « فقاتل فى سبيل الله لا تكلف إلا نفسك » نقول : مادام الأمر جاء « فقاتل » ، فعلينا أن نبحث عن آيات القتال المتقدمة ، ألم يقل قبل هذه الآية :

﴿ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ ﴾

(سورة النساء)

والآية الثانية :

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ ﴾

(من الآية ٧٥ سورة النساء)

إذن أمر القتال موجود من الله لمن ؟ لرسول الله ، والرسول يبلغ هذا الأمر للمؤمنين به ، والرسول يسمعه من الله مرة واحدة ؛ لذلك فإنّه صلى الله عليه وسلم أول من يصدق أمر الله فى قوله : « فليقاتل فى سبيل الله » . ثم ينقلها إلى المؤمنين ، فمن آمن فهو مصدق لرسول الله فى هذا الأمر . فالرسول هو أول منفعل بالقرآن فإذا قال الحق :

﴿ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾

(من الآية ٧٤ سورة النساء)

أو عندما يقول له الحق :

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٧٥ سورة النساء)

ومادام الرسول صلى الله عليه وسلم هو أول منفعل بأوامر الله ، فإذا جاءه الأمر فعليه أن يلزم نفسه أولاً به ، وإن لم يستمع إليه أحد وإن لم يؤمن به أحد أو لم يتبعه أحد ، وهذا دليل على أنه واثق من الذى قاله له : « ومالكم لا تقاتلون فى سبيل الله » ومادام صلى الله عليه وسلم هو أول منفعل فعليه أولاً نفسه ؛ لأنه صلى الله

عليه وسلم بإقباله على القتال وحده ، إنما يدل مَن سمع القرآن على أن الرسول الذى نزل عليه هذا القرآن ، أول مصدق ، ومحمد لن يغش نفسه . فقبل أن يأمر المؤمنين أن يقاتلوا ، يقاتل هو وحده . ولذلك نجد أن سيدنا أبا بكر الصديق ـ رضوان الله عليه ـ حينما انتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى وحدثت الردة من بعض العرب ، وأصرّ خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن يقاتل المرتدين وقال : لو منعونى عقال بعير كانوا يؤدونه لرسول الله صلى الله عليه وسلم لجالدتهم عليه بالسيف . وحاول بعض الصحابة أن يثنى أبا بكر الصديق عن عزمه فقال : والله لو عصت يمينى أن تقاتلهم لقاتلتهم بشمالى .

إذن فقول الله لرسوله صلى الله عليه وسلم : « فقاتل فى سبيل الله » ينبهنا إلى أن هناك فرقاً بين البلاغ وبين تنفيذ المبلَّغ . ومادام الرسول صلى الله عليه وسلم قد سمع من الله ، فهو ملزم بتطبيق الفعل أولاً ، وبعد ذلك يبلغ الرسولُ المؤمنين ، فمن استمع إليه فعل فعله .

وقول الحق : « لا تكلف إلا نفسك » هو تكليف بالفعل لا بالبلاغ فقط ، فالرسول يبلغ ، لكن أن يفعل المؤمنون ما بلغهم به عن الله أو لا يفعلوا فهذا ليس من شأنه ولا هو مكلف به . ولكن على الرسول أن يلزم ويكلف نفسه ليقاتل فى سبيل الله . « فقاتل فى سبيل الله لا تكلف إلا نفسك » .

أمعنى ذلك أن يترك الرسول الذين آمنوا به لنفوسهم ؟ . لا. فالحق قد أوضح : عليك أيضاً أن تحرضهم على القتال فلا تتركهم لنفوسهم : « وحرض المؤمنين عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا » ومعنى « حرض » مأخوذ من « الحُرْض » وهو ما به إزالة العوائق وما ينظف الأيدى والملابس مما يرين عليها ويعلوها من الوسخ والدنس ، فعليك يا رسول الله أن تنظر فى أمر صحابتك وأتباعك وتعرف لماذا لا يريدون أن يقاتلوا ، وعليك أن تنفض عنهم الموانع وتزيل العوائق التى تمنعهم أن يقاتلوا .

« وحرض المؤمنين عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا » ، وكأن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يقول لرسوله : إنك لا تنصر بالكثرة المؤمنة بك ، ولكن المؤمنين هم

ستر ليد الله فى النصر ، فالنصر منه سبحانه :

﴿ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ١٢٦ سورة آل عمران)

وورود كلمة « بأس » فى الآية التى نحن بصددها ، يراد بها القوة والشدة فى الحرب ، ويراد بها المكيدة ، ويراد بها هزيمة الأعداء . فكلمة « بأس » فيها معانٍ متعددة . والحق يبلغ رسوله : إنك يا محمد لا تكلف إلا نفسك وإياك أن يخطر على بشريتك : كيف أقاتل هؤلاء وحدى فإن القوم المؤمنين معك وإذا ما دخلوا القتال فهم لا ينصرونك ولكنهم يسترون يد الله فى النصر :

﴿ قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾

(من الآية ١٤ سورة التوبة)

ولماذا لا ينصر الله المؤمنين والرسول مباشرة دون قتال لغيرهم من الكفار والمشركين ؟. لأن النصر لو جاء بسبب غيبى من الحق ربما قالوا ظاهرة طبيعية قد نشأت . . ولكن الحق يريد أن يظهر أن القلة المؤمنة هى التى غلبت ، فالمؤمن يقبل على الأسباب ولا ينسى المسبب ، فحينما نظر المسلمون إلى الأسباب فقط فى « حنين » ، وقال بعضهم : لن نهزم عن قلة فنحن كثير ، هنا ذاق المسلمون طعم الهزيمة أولاً ، وبعد أن أعطاهم الحقُّ الدرس التأديبى أولاً . . نصرهم ثانياً . والحق يقول :

﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا ﴾

(من الآية ٢٥ سورة التوبة)

وهذا لفت للمؤمنين أن يكونوا مع الأسباب ويتذكروا المسبب دائماً ؛ لأن الأسباب إنما تأتى فقط لإثبات أن الله مع المؤمنين فلو أن المؤمنين انتصروا بأى سبب غيبى آخر لقال الأعداء : إن هذا الذى حدث هو ناتج ظاهرة طبيعية . والفرق بين الظاهرة الطبيعية والظاهرة المادية فى الخصوم ما حدث لسيدنا إبراهيم عليه السلام . فلم يرد الحق مجرد إنقاذ سيدنا إبراهيم من النار ؛ لأن الأمر لو كان كذلك لما مَكَّن أعداء إبراهيم عليه السلام من القبض عليه . . ولو فعل الحق ذلك لقال أعداء سيدنا

إبراهيم : آه لو كنا قد أمسكنا به ، ولكان ذلك فرصة لكفرهم .

ولكن الحق يجعلهم يمسكون بإبراهيم عليه السلام : وَتَرَكَ النارَ تتأجج ، ويقطع سبحانه الأسباب :

﴿ قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ ﴾

(سورة الأنبياء)

هذه هى النكاية ، فلو جاء إنقاذ إبراهيم بطريق غير ذلك من الأمور الغَيبية غير المادية المحسة ، لوجد خصوم إبراهيم المخارج لتبرير هزيمتهم .

ولذلك فالحق سبحانه وتعالى يوضح لرسوله : يا محمد أنا الذى أرسلتك ، ولم أكِلْك إلى نصرة من يؤمن بك ، وإننى قادر على نصرك وحدك بدون شىء ، ولكن أردت لأمتك التى آمنت بك أن ينالها يُمْنُ الإيمان بك فيستشهد بعضها ، فتثاب الأمة ، وتنتصر فتعلو وترتفع هامتها على العرب ، فلو كان الأمر مقصوراً على نصر رسول الله لنصره الله دون حرب أو جهاد .

وقول الحق سبحانه : « عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأساً وأشد تنكيلاً » أى أنه سبحانه قادر على أن يوقف ويمنع حرب وكيد الكافرين فيُبطله ويهزمهم . وهذا ما حدث ، فبعد موقعة « أحد » التى ماعت نهايتها ولا يستطيع أحد أن يحدد مَن المنتصر فيها ومن المهزوم ؛ لأن رسول الله قد انتصر أولاً ، ثم خالف الرماة أمر رسول الله ، فحدث خلل فى صفوف المقاتلين المسلمين ، ولكن لم يبق المحاربون من قريش فى مكان المعركة ، وأيضا لم يتجاوزوها إلى داخل المدينة ، ولذلك لم تنته معركة أُحُد بنصر أحَد . وبعد ذلك هددوا بأن الميعاد فى بدر الصغرى فى العام القادم .

ومر العام ، وجاء الميعاد ، وأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخرج ، فلما طالب بالخروج وجد كسلاً من القوم ، ولم يطعه إلا سبعون رجلاً ، وخرجوا إلى المكان المحدد . وأثبتوا أنهم لم يخافوا الموقف ، وقذف الله الرعب فى قلب أبى سفيان وقومه فلم يخرجوا . إذن فربنا قادر أن يكف بأس الذين كفروا ، فقد أقام رسول الله

فى المكان ، وجلس مع المقاتلين وكان معهم تجارة وباعوها وغنم المسلمون الكثير من هذه التجارة .

« عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأساً وأشد تنكيلاً » وكلمة « عسى » فى اللغة تأخذ أوضاعاً متعددة ، فـ « عسى » معناها فى اللغة الرجاء ، كقول واحد : عسى أن يجىء فلان . أى : أرجو أن يجىء فلان . أو قول واحد مخاطباً صاحباً له : عسى أن يأتيك فلان بخير . وهذا رجاء أن يأتى فلان إلى فلان ببعض الخير ، وقد يأتى فلان بالخير وقد لا يأتى ، لكن الرجاء قد حدث .

وقد يقول واحد لصاحبه : عسى أن آتيك أنا بخير . هنا يكون الرجاء أكثر قوة ؛ لأن الرجاء فى الأولى فى يد واحد آخر غير المتحدث ، أما الخير هنا فهو فى يد المتحدث . لكن أيضمن المتحدث أن توجد له القوة والوجود حتى يأتى بالخير لمن يتحدث إليه ؟ .

إنه صحيح ينوى ذلك ولكنه لا يضمن أن توجد عنده القدرة .

وإذا قال قائل : عسى الله أن يأتيك بالفرج . هذه هى الأوغل فى الرجاء . لكن هل من يقول ذلك واثق من أن الله يجيب هذا الرجاء ؟ . قد يجيب الله وقد لا يجيب وفقاً لإرادة الله لا لمعايير من يرجو أو المرجو له . أما عندما يقول الحق عن نفسه : « عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا » فهذا هو القول البالغ لنهايات كل الرجاءات . فـ « عسى » بمراحلها المختلفة تبلغ قمتها عندما يقول الحق ذلك .

وهكذا نرى مراحل « عسى » . أن يقول قائل : عسى أن يفعل لك فلان خيراً . هذه مرحلة أولى فى الرجاء ، وأن يقول قائل : عسى أن آتيك أنا بخير . هذه مرحلة أقوى فى الرجاء ، فقد يحب الإنسان أن يأتى بالخير لكن قد تأتى له ظروف تعوقه عن ذلك . وأن يقول قائل : عسى الله أن يفعل كذا ، هذه مرحلة أكثر قوة ؛ لأن الخير فيها منسوب إلى القوة العليا ، لكن هذا الرجاء قد يجيبه الله وقد لا يجيبه .

والأقوى على الإطلاق هو أن يقول الله عن نفسه : « عسى الله أن يكف بأس

الذين كفروا » و« عسى » بالنسبة لله رجاء محقق لأنه إطماع من الله عز وجل،والإطماع منه واجب تحققه لأنه ـ سبحانه ـ هو الذى يحثنا ويدفعنا إلى الطمع فى فضله لأنه كريم ، وهو القائل سبحانه : « عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأساً وأشد تنكيلاً » لأن أصحاب البأس من الخلق هم أهل أغيار ، فالقوى منهم قد يضعف أو يصاب ببعض من الرعب فتتخلخل عظامه . أما واهب الفعل وواهب القوى لخلقه فهو القادر على أن يفعل فهو الأشد بأساً وهو سبحانه أشد تنكيلاً .

وساعة يسمع الإنسان أى شىء من مادة « نكل » فعليه أن يعرف أنها مأخوذة من « النِكْل » وهو القيد . وعندما يوقع الحاكم ـ مثلا ـ العذاب على مرتكب لجريمة ، والشخص الذى يرى هذا العذاب يخاف من ارتكاب مثل هذه الجريمة ، فكأن الحاكم قد قيدهم بالعذاب الذى أنزله بأول مجرم أن يفعلوا مثل فعله . ولذلك يقال على ألسنة الحكام : سأجعل من فلان نَكالاً . أى أن القائل سيعذب فلاناً ، بحيث يكون عبرة لمن يراه فلا يرتكب جريمة مثلها أبداً خوفا من أن تنزل به العقوبة التى نزلت ولحقت بمن فعل الجريمة .

إذن فالتنكيل والنكال والنِكل كلها راجعة إلى القيد الذى يمنع إنساناً أن يتحرك نحو الجريمة ، أو قيد يمنع الإنسان أن يرجع إلى الجريمة التى فعلها أولاً ، أو أن هذا القيد وهو العذاب الذى عوقب به مرتكب الجريمة يكون ماثلا أمام الناس يحذرهم من الوقوع فيها كى لا تنالهم عقوبتها ونكالها .

إن الحق سبحانه وتعالى حين خلق الخلق ووزع عليهم فضل المواهب فلا يوجد واحد قد جمع كل المواهب ؛ لأن فكر الإنسان وطاقته وزمنه وظروفه شاء الله أن تختلف وشاء سبحانه ألا يجعل الإنسان موهوباً فى كل مجال ، وحين يوزع الله على كل عبد جزءًا من المواهب ويعطى العبد الآخر جزءا آخر حتى يتكامل العباد معاً . فلو أن صاحب موهبة تجمعت لديه مواهب الآخرين لاستغنى كل إنسان عن مواهب الآخرين ، والله يريد منا مجتمعاً متسانداً متكافلاً متكاملاً ، فما أفقده أنا أجده عند غيرى . فتجد بارعاً فى الهندسة وعندما يصاب هذا المهندس البارع بألم فهو يطلب طبيبا ، والطبيب الذى يريد بناء عيادة يطلبها من المهندس . وكلاهما يطلب مشورة المحامى فى كتابة العقود ، وكل هؤلاء فى حاجة إلى من يقيم البناء ، والذين يقيمون

البناء من مهن متعددة أخرى يحتاج بعضهم إلى بعض .

إذن لا يوجد فرد واحد قادر على أن يقوم بكل هذه العمليات بمفرده ، ولو أن هناك واحداً يستطيع كل ذلك لما احتاج إلى أحد ، ولو حدث ذلك لكان التفكك فى المجتمع . ولذلك جاء قول الحق :

﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الزخرف)

والناس حين تنظر لتفضيل الله لبعض الناس على بعض درجات ينظرون إلى ذلك فى مجال المال فقط . . ونقول لمن يظن ذلك : ـ أنت مخطئ ، فإن فضلك الله فى القوة والجسم فهذه رفعة ، وإن فضلك فى العلم فذلك رفعة أيضاً ، وإن فضلك فى الحلم فهذه رفعة ، إن تفضيل الحق لك فى أى مجال هو رفعة لك ، فأنت كعبد تكون مفضلاً ؛ ومفضلاً عليك .

إذن فحين يقول الحق : « ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات » . قد يسأل إنسان : أى بعض مرفوع وأى بعض مرفوع عليه ؟ . ونقول : كل واحد مرفوع بموهبته ، وغيره مرفوع عليه بموهبته .

ومن القصور أن ننظر إلى التفضيل فى مجال المال فقط ، فلا يصح أن ننظر إلى هذه الزاوية وحدها ولكن لننظر من كل الزوايا . وعندما ننظر فى الزوايا جميعها نجد الفرد مرفوعاً فى شىء ، ومرفوعاً عليه فى أشياء ، وكل منا مسخر لغيره . إذن فعندما خلق الله العباد جعل كُلًّا منهم مسخراً للآخر ، ومادام الأمر كذلك ، فيجب ألا يُترك الفرد فى البيئة الإيمانية فذاً ، بل على كل ذى موهبة يفقدها غيره أن يمده بهذه الموهبة . فبعد أن كان فذاً ـ أى فرداً ـ يصير شَفْعاً . والشَّفْعُ ـ كما نعلم ـ هو ضم شىء إلى مثله ، فما ضم إلى غيره ليصيرا زوجا فهو شَفْع بخلاف الوتر فإنه الواحد .

فإذا كان الواحد منا موهوباً فليضم موهبته للثانى ، حتى يصبح الاثنان شَفْعاً ، وبذلك ينطبق عليه قول الحق :

﴿ مَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ ﴾

وما هى الشفاعة الحسنة ؟ الذين من الريف يعرفون مسألة « الشُّفْعَة » فى العرف . فيقال : فلان أخذ هذه الأرض بالشفعة . أى أنه بعد أن كان يملك قطعة واحدة من الأرض ، اشترى قطعة الأرض المجاورة لتنضم لأرضه ، فبدلاً من أن تكون له أرض واحدة صارت له أرضان .

وعندما يأتى واحد لشراء أرض ما ، فالجار صاحب الأرض المجاورة يقول : أنا أدخل بالشفعة ، أى أنه الأولى بملكية الأرض . إذن فمعنى يشفع ، هو من يقوم بتعدية أثر الموهبة منه إلى غيره من إخوانه المؤمنين ولهذا فإنه يكون له نصيب منها .

فالشفاعة الحسنة هى التوسط بالقول فى وصول إنسان إلى منفعة دنيوية أو أخروية أو إلى الخلاص من مضرّة وتكون بلا مقابل . إذن فكل واحد عنده موهبة عليه أن يضم نفسه لغير الموهوب ، فبعد أن كان فرداً فى ذاته صار شفعاً . ولذلك يقال : فلان سيشفع لى عند فلان ، أى أنه سيضم صوته لصوت المستعين به . والحق سبحانه وتعالى فيما يرويه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله قال لسيدنا داود : إن الرجل ليعمل العمل الواحد أحكِّمه به فى الجنة .

أى أن رجلا واحداً يؤدى عملا ما ، فيعطيه الله فضلاً بأن يقوم بتوزيع الأماكن على الأفراد فى الجنة ، وكأنه وكيل فى الجنة ، أى أنه لا يأخذ منزلا له فقط ، ولكنه يتصرف فى إعطاء المنازل أيضاً ، فتساءل داود : يارب ومن ذلك ؟ قال سبحانه : مؤمن يسعى فى حاجة أخيه يحب أن يقضيها قضيت أو لم تقض .

قال صلى الله عليه وسلم : « من مشى فى حاجة أخيه وبلغ فيها كان خيرا له من

اعتكافه عشر سنين ، ومن اعتكف يوما ابتغاء وجه الله تعالى جعل الله بينه وبين النار ثلاثة خنادق أبعد مما بين الخافقين »[1] .

ذلك لأن العبد الذى سعى فى قضاء حاجة أخيه يكون قد أدى حق نعمة الله فيما تفضل به عليه ، ويكون من أثر ذلك أنه لا يسخط أو يحقد غير الواجد للموهبة على ذى الموهبة . وبذلك فسبحانه يزيل الحقد من نفس غير الموهوب على ذى الموهبة ؛ فغير الموهوب يقول : إن موهبة فلان تنفعنى أنا كذلك ، فيحبّ بقاءها عنده ونماءها لديه .

ويقول الحق : « من يشفع شفاعة حسنة يكون له نصيب منها » ثم يأتى الحق بالمقابل ، فهو سبحانه لا يشرع للأخيار فقط ، ولكنه يضع الترغيب للأخيار ويضع الترهيب للأشرار ، فيقول : « ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها » .

ولنر المخالفة والفارق بين كلمة « النصيب » وكلمة « الكفل » . كلمة « النصيب » تأتى بمعنى الخير كثيرا . فعندما يقول واحد : أنت لك فى مالى نصيب . هذا القول يصلح لأى نسبة من المال . أما كلمة « كفل » فهى جزء على قدر السيئة فقط . وهذا هو فضل من الله ، فمن جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ، وهذا نصيب كبير . ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها .

وهذه الآية قد جاءت بعد تحريض الرسول للمؤمنين على القتال ، أى أنك يا رسول الله مُطالب بأن تضم لك أناساً يقاتلون معك ؛ فتلك شفاعة حسنة سوف ينالون منها نصيباً كبيرا وثوابا جزيلا .

أما قول الحق : « ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها » أى يكون له جزء منها ، أى يصيبه شؤم السيئة ، أما الجزاء الكبير على الحسنة فيدفع إلى إشاعة مواهب الناس لكل الناس . ومادامت مواهب الناس مشاعة لكل الناس فالمجتمع يكون متسانداً لا متعانداً ، ويصير الكل متعاوناً صافى القلب ، فساعة يرى واحد النعمة عند أخيه يقول : « سيأتى يوم يسعى لى فيه خير هذه النعمة » .

---

(١) رواه البيهقى .

ولذلك قلنا : إن الذى يجب أن تسرع إليه نعم غيره فليحب النعم عند أصحابها . فإنك أيها المؤمن إن أحببت نعمة عند صاحبها جاءك خيرها وأنت جالس . وإذا ما حُرمت من آثار نعمة وهبها الله لغيرك عليك فراجع قلبك فى مسألة حبك للنعمة عنده ، فقد تجد نفسك مصاباً بشىء من الغيرة منها أو كارهاً للنعمة عنده ، فتصير النعمة وكأنها فى غيرة على صاحبها ، وتقول للكاره لها : « إنك لن تقربنى ولن تنال خيرى » .

ويختم الحق الآية : « وكان الله على كل شىء مُقيتاً » جاء هذا القول بعد الشفاعة الحسنة والشفاعة السيئة ، وفى ذلك تنبيه لكل العباد : إياكم أن يظن أحدكم أن هناك شيئاً مهما صغر يفلت من حساب الله ، فلا فى الحسنة سيفلت شىء ، ولا فى السيئة سيضيع شىء . وأخذت كلمة « مُقيتاً » من العلماء أبحاثاً مستفيضة . فعالم قال فى معناها : إن الحق شهيد ، وقال آخر : « إن الحق حسيب » ، وقال ثالث : إن « مقيتاً » معناها « مانح القوت » ورابع قال : « إنه حفيظ » وخامس قال : « إنه رقيب » .

ونقول لهم جميعاً : لا داعى للخلاف فى هذه المسألة ، فهناك فرق بين تفسير اللفظ بلازم من لوازمه وقد تتعدد اللوازم ، فكل معنى من هذه المعانى قد يكون صحيحاً ، ولكن المعنى الجامع هو الذى يكون من مادة الكلمة ذاتها . و« مُقيت » من « قاته » أى أعطاه القوت ، ولماذا يعطيهم القوت ؟ ليحافظ على حياتهم ، فهو مقيت بمعنى أنه يعطيهم ما يحفظ حياتهم ، ومعناها أيضاً : المحافظ عليهم فهو الحفيظ . وبما أنه سبحانه يعطى القوت ليظل الإنسان حياً ، فهو مشاهد له فلا يغيب المخلوق عن خالقه لحظة ، وبما أنه يعطى القوت للإنسان على قدر حاجته فهو حسيب . وبما أنه يرقب سلوك الإنسان فهو يجازيه .

إذن كل هذه المعانى متداخلة ومتلازمة ؛ لذلك لا نقول اختلف العلماء فى هذا المعنى ، ولكن لنقل إن كل عالم لاحظ ملحظاً فى الكلمة ، فالذى لاحظ القوت الأصلى على صواب ، فلا يعطى القوت الأصلى إلا المراقب لعباده دائماً ، فهو شهيد ، ولا يعطى أحداً قوتاً إلا إذا كان قائماً على شأنه فهو حسيب . وسبحانه لا يُقيت

الإنسان فقط ولكن يقيت كل خلقه ، فهو يقيت الحيوان ويلهمه أن يأكل صنفاً معيناً من الطعام ولا يأكل الصنف الآخر .

إننا إذا رأينا العلماء ينظرون إلى « مقيت » من زوايا مختلفة فهم جميعا على صواب ، سواء من جعلها من القوت أو من الحفظ أو من القدرة أو من المشاهدة أو من الحساب ، وكل واحد إنما نظر إلى لازم من لوازم كلمة « مقيت » وسبحانه يقيت كل شيء ، فهو يقيت الإنسان والحيوان والجماد والنبات .

ونجد علماء النبات يشرحون ذلك ؛ فنحن نزرع النبات ، وتمتص جذور النبات العناصر الغذائية من الأرض ، وقبل أن يصبح للنبات جذورٌ ، فهو يأخذ غذاءه من فلقتي الحبة التي تضم الغذاء إلى أن ينبت لها جذر ، وبعد أن يكبر جذر النبات فالفلقتان تصيران إلى ورقتين ، وسبحانه على كل شيء مقيت ، ويقول العلماء من بعد ذلك : إن الغذاء قد امتصه النبات بخاصية الأنابيب الشعرية . أي أن النبات يمتص الغذاء من التربة بواسطة الجذور الرفيعة التي تمتص الماء المذاب فيه عناصر الغذاء . وفتحة الأنبوبة في الأنابيب الشعرية لا تسع إلا مقدار الشعرة ، وعندما توضع في الإناء فالسائل يصعد فيها ويرتفع الماء عن مستوى الحوض ، وعندنا تتوازى ضغوط الهواء على مستويات الماء فالماء لا يصعد .

ومثال ذلك : عندما نأتي بماء ملون ونضعه في إناء ، ونضع في الإناء الأنابيب الشعرية، فالسائل الملون يصعد إلى الأنابيب الشعرية، ولا تأخذ أنبوبة مادة من السائل، وتترك مادة بل كل الأنابيب تأخذ المادة نفسها . لكن شعيرات النبات تأخذ من الأرض الشيء الصالح لها وتترك الشيء غير الصالح . وهو ما يقول عنه علماء النبات « ذلك هو الانتخاب الطبيعي » . ومعنى الانتخاب هو الاختيار ، والاختيار يقتضي عقلاً يفكر ويرجح ، والنبات لا عقل له ، ولذلك كان يجب أن يقولوا إنه « الانتخاب الإلهي » ، فالطبيعة لا عقل لها ولكن يديرها حكيم له مطلق العلم والحكمة والقيومية .

وسبحانه يقول عن ذلك :

﴿ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .

(من الآية ٤ سورة الرعد)

فالفلفل يأخذ المادة المناسبة للحريفية ، والقصب يأخذ المادة التى تصنع حلاوته ، والرمان يأخذ المادة الحمضية . هذا هو الانتخاب الإلهى .

« وكان الله على كل شىء مُقيتاً » وساعة تسمع « كان الله » فإياك أن تتصور أن لـ « كان » هنا ملحظاً فى الزمن ، فعندما نقول بالنسبة للبشر « كان زيد غنياً » فزيد من الأغيار وقد يذهب ثراؤه . لكن عندما نقول « كان الله » فإننا نقول « كان الله ومازال » ، لأن الذى كان ويتغير هو من تدركه الأغيار . وسبحانه هو الذى يُغَيِّر ولا يَتَغَيَّر ، وموجود منذ الأزل وإلى الأبد . وحين أوضح لنا سبحانه الشفاعة وأمرنا أن يعدى الواحد منا مواهبه إلى غيره فذلك حتى تتساند قدرات المجتمع لأنه يربب الفائدة للعبد المؤمن ويربيها للجميع .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ ﴾

الحق هنا يريد أن يربب معنى الحياة . فما معنى : « حُييتم » ؟ الكلام السطحى الأولى فيها : إذا حياك واحد وقال لك : « السلام عليكم » فعليك أن ترد السلام . وكان العرب قديماً يقولون : حياك الله . وبعد أن جاء الإسلام جعل التحية فى اللقاء هى السلام :

﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة الأحزاب)